إلى الأستاذ محمد أحمد الغمراوي

تعجبني مداعباتك الطريفة للدكتور زكي مبارك ، ويدهشني حقاً كما يدهش الكثيرين أن يقف الدكتور ـ وهو الصوال المقدام ـ هذا الموقف السلبي الغريب بأزاء نقد أوشك أن يهدم أكبر أثر له طالما اعتز به وفاخر . وما دام قد لاذ بالصمت وآثر عافية غير محمودة ، فلا مندوحة لسواه من أن يسد مسده في التعقيب على ما يستحق التعقيب عليه من هذا النقد . وقد وقعت من ذلك على نقطتين في مقالك الرابع عن « فساد الطريقة في كتاب النثر الفني »

الأولى : أنك ذكرت أن سر تفاهة البيت :

كأننا والمـــاء من حولنا قـــوم جلوس حولهم ماء

ليس في صدق هذا الكلام ومطابقته للواقع ـ كما زعم الدكتور في كتابه ـ وإنما هو في أن المشبه به في الشطر الثاني من البيت هو المشبه عينه الوارد في الشطر الأول مما أبطل التشبيه لعدم المغايرة بين طرفيه ، فأصبح البيت من ناحية التشبيه بيتاً كذباً ، ولو استبدل بحرف التشبيه حرف التوكيد لصدق البيت وارتفعت قيمته ارتفاعاً يجعله بمنجاة من أن يكون مثلا مضروباً في السخرية والاستهزاء الخ ... »

وأقول إن البيت ـ حتى بعد هذا التعديل المقترح ـ يظل تافهاً ، بل غير صحيح من ناحية اللغة ، وذلك لأنه يشترط في الخبر أن يفيد فائدة زائدة على المبتدإ ، وفي ذلك يقول ابن مالك :

والخـــبر الجزء المتم الفائده كالله بر والأيادي شاهده

ولا معنى للخبر إن لم يكن كذلك . وما ورد فيه الخبر بلفظ المبتدإ لوحظت فيه مع ذلك فائدة زائدة على المبتدإ كما في قول القائل : أنا أبو النجم وشعري شعري . إذ عنى بقوله « شعري شعري » أن شعره الحاضر هو من جنس شعره المعهود للمخاطبين من قبل . وعلى تقدير كهذا حمل قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » في حديث (إنما الأعمال) : « وليس في الخبر الوارد في قول القائل : « كأننا والماء ... الخ . » فائدة زائدة على المبتدإ ولا هو مما يحتمل تقدير شيء من ذلك .

الثانية : ذكرت ما أورده الدكتور زكي في كتاب النثر الفني نقلا عن الباقلاني من تعريف الأخير للسجع بأنه : « ما يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع » ، وتقريره أن ما ورد في القرآن على هيئة السجع لا يدخل تحت هذا التعريف ، « لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى » . وأردفت ذلك بذكر عبارة الباقلاني التي أكد بها احتجاجه لرأيه المتقدم ، وهي :

« وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى »

ثم زعمت أن هـذه العبارة لا تستقيم مع رأي الباقلاني المتقدم ، وأنه لابد أن يكون قد وقع فيها تداخل عند طبع الأصل أو عند النسخ استغلق به المعنى على القارىء مما لم يفطن إليه الدكتور « فدل بذلك على تقصيره في فحص الكلام وتقليبه أو على قصوره في الفهم والتفكير الخ ... »

والواقع أنه لا تداخل في العبارة ولا استغلاق في معناها الواضح كل الوضوح ، فهي تعني أن الكلام الوارد على هيئة السجع على نوعين : أحدهما كلام منتظم في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه . فلا مناص من إيراد اللفظ الوارد على هيئة السجع ، لأنه لابد منه لإفادة هذا المعنى ، ولا يمكن أن يحل غيره محله في إفادته ، ويصبح المعنى في هذه الحالة مرتبطا بذلك كارتباط معاني غيره من الألفاظ التي لم ترد على هيئة السجع بهذه الألفاظ . فتكون إفادته كإفادتها ، أي أنه لا يكون مستجلبا لغرض آخر غير إفادة المعنى . النوع الثاني كلام يكون معناه منتظما بغير اللفظ الوارد فيه على هيئة السجع ، فلا يكون هذا المعنى مرتبطا بهذا اللفظ ، لأنه يمكن الاستعاضة عنه بلفظ آخر يفيد هذا المعنى أيضاً ، وعلى ذلك يكون الإتيان في هـذه الحالة بخصوص اللفظ الوارد على هيئة السجع قد قصد به إلى

غرض آخر غير إفادة المعنى ، ألا وهو تجنيس الكلام . والنوع الثانى هو السجع الحقيق ، والنوع الأول — وهو وحده الوارد فى القرآن على ما يرى الباقلانى — ليس بسجع حقيق وإن جاء على هيئته

ومعنى العبارة على الوجه المتقدم هو المستقيم تماماً مع رأى الباقلانى السابق فى تعريف النوعين . فالأول — وهو ما ورد على هيئة السجع وليس بسجع حقيق — يتبع اللفظ فيه المعنى ، لأنه إنما أتى باللفظ للتعبير عن ذلك المعنى المقصود بعد التثبت من إفادته التامة له . أما الثانى — وهو السجع الحقيق — فيتبع المعنى فيه اللفظ الذى لم يؤت به بخصوصه لإفادة المعنى وإنما لغرض آخر هو تجنيس الكلام ، أفاد المعنى المقصود بتمامه أو لم يفد . ومن ثم استهجن التزام السجع لأنه إنما يكون على حساب المعنى

هذا وتستطيع بعد الإيضاح المتقدم أن تتبين بأدنى تأمل ما فى عبارتك التى أوردتها تصحيحاً لعبارة الباقلانى من مناقضة لحقيقة رأيه ومجانبة للصواب

وأعود فأكرر إعجابى بمجهودك الموفق فى نقد كتاب النثر الفنى .

ابراهيم زكى العربى بدوى
الأستاذ بدار العلوم العليا ببغداد سابقاً

حول « الحب عند المتنبى »[1]

تساءل الأستاذ حسن الأمين : هل أحب المتنبى وهل أحس بلواعج الغرام ؟

وأراد فى جوابه أن يقول ، إنه لم يحب ، ولم يحس بلواعج الغرام ، واستشهد بشىء من شعر المتنبى . وأريد أن أقول إن حب المتنبى يكاد يكون لغزاً مستعصياً على الحل . ولست الآن بصدد إثباته أو نفيه ، غير أنى أريد أن أستأذن الأستاذ حسن الأمين فى ألا أوافقه فى أن ما استشهد به من شعر المتنبى يؤدى إلى النتيجة التى وصل إليها . بل فى بعض ما يدل على خلاف رأى الأستاذ . وها كم البيان

١ — فهم الأستاذ من قول المتنبى :

تحملوا حملتكم كل ناجية فكل بين على (اليوم) مؤتمن

فهم أنه (لا التهديد بالرحيل ، ولا الوعيد بالهجر استطاع أن يلين قلبه ويميل به إلى الهوى)

وكلمة اليوم فى البيت التى وضعتها بين قوسين تدل بوضوح على أن المتنبى كان يحب ، وأنه يريد بإصرار وقوة أن يتوب من هذا الحب . فيقول . انتهى عهد الحب واليوم أصبح البين مؤتمنا على لا يؤثر فىّ سقماً ولا هما

٢ — وإن قال المتنبى (محب كنى بالبيض الخ) إلا أن قوله :

عدمت فؤاداً لم تبت فيه (فضلة)

لغير الثنايا الغر والحدق النجل

يدل على أنه يريد أن لا يكون قلبه قاصراً على حب النساء ، بل يجب أن يكون فيه (فضله) لغير حب النساء . فظاهر من هذا أن المقام الأول هو لحبهن ، والفضلة لغيرهن

٣ — قول المتنبى (وما العشق إلا غرة وطماعه) وقوله : (مما أضر بأهل العشق أنهم) ، وأمثاله ، لا يدل على أنه غير عاشق . بل هو أقرب إلى أن يدل على أنه عاشق برح به العشق وكوى كبده ، وذاق حلوه ومره ، ولكنه رجل غلب عليه العقل وقوة الإرادة ، فهو يريد أن يداوى نفسه من عشقه بمثل هذه الأقوال ، وكثير ممن جربوا الحب وخابوا فيه أو لم يصلوا إلى نتيجة رجعوا على أنفسهم باللوم وعلى الحب بالتنقيص

٤ — وأما الأبيات التى ادعى فيها العشق ؛ فأنا أفرض مع الأستاذ أنها لا تدل على العشق ، كما يقول المتنبى نفسه (أكل فصيح قال شعراً متيم ؟) إلا أننى لا أستطيع أن أمر بأشعاره المشتملة على العاطفة الصحيحة من مثل قوله : (ما لاح برق أو ترنم طائر) إلى آخر ما ذكره الأستاذ فى هذا الصدد . أقول لا أستطيع أن أمر بهذا ، دون أن أشعر بأن المتنبى كان محباً صادقاً

٥ — الحب عاطفة إنسانية أصيلة لا يحرمها إلا من مسخ قلبه ، ولا يكون المتنبى — وهو من هو — كذلك ، فهذا وحده كاف للتدليل على أن المتنبى أحب ، وأنه أحس بلواعج الوجد ، وتباريح الغرام . والآن آن أن أقول إن اللغز فى حب المتنبى ، ليس هو الحب نفسه ، ولكن من هو الشخص الذى أحبه المتنبى . وقد أجاب عن ذلك الأستاذ محمود محمد شاكر . ببحث فيه مجال للبحث .

(اللد — فلسطين)

داود محمد الله

(١) العدد ٨١٥ من « الرسالة »